«موشحات» غادة شبير مرشحة لجائزة «بي بي سي» للموسيقى العالمية

قبل أشهر احتفل محبّو الطرب الاصيل، وفن الموشح تحديداً، بصدور تسجيل مرجعي في بيروت بعنوان «موشحات». الاسطوانة التي أنتجتها «فوروارد ميوزيك»، بمشاركة عازفين بارزين في لبنان، تحمل بصمات المغنية والباحثة غادة شبير التي يأتي تكريسها اليوم من... بريطانيا.

لم تكن الدرب التي اختارتها غادة شبير سهلة. لكن هذه العاشقة الأبدية للتراث، تعرف جيداً ان كل عمل دؤوب وخلاق، مهما طال تهميشه تحت وطأة منطق السوق، لا بد من أن ينال حقه في لحظة ما، ويعترف به المجتمع ويقدره ويستمتع بجماله. اسطوانة «موشحات» التي أطلقتها المغنية اللبنانية في ايار ٢٠٠٦، جاءها الانصاف من بريطانيا، اذ رشحت لـ«جائزة BBC للموسيقى العالمية للعام ٢٠٠٧». ويبدو ان شبير التي جاء ترشيحها عن لقب «أفضل فنان في مجموعة الشرق الاوسط وشمال افريقيا»، ينافسها كل من لي بوكاكس (الجزائر)، ناتاشا أطلس (بريطانيا/مصر)، وياسمين ليفي (اسرائيل)... «تملك حظوظاً كبيرة في الفوز باللقب» حسب مسؤول في الشركة التي أطلقت اسطوانتها.

في انتظار اعلان النتائج يمكننا اعتبار الترشيح بحد ذاته، مناسبة تستحق الاحتفاء، لان من شأنه «أن يسلط الضوء على الموشحات وعلى التراث الغنائي العربي» على حد تعبير شبير نفسها لدى إعلان خبر الترشيح.

واسطوانة «الموشحات» التي أراد من خلالها غازي عبد الباقي وكارول منصور «استعادة هذا العصر الذهبي العربي»، تحمل بصمات غادة شبير، غناء طبعاً، انما بحثاً وتنويطاً. تشتمل الاسطوانة ايضاً على كتيب توضيحي، يعطي معلومات فنية وتاريخية ثمينة، كما يشرح نوع كل موشح (المزين، المركب الايقاعات...) وميزاته وتركيبته (مثلاً: دورين خانة وغطاء...). وقدمت غادة شبير والمجموعة في الاسطوانة تسجيلات لموشحات عدة مثل: «بدري أدر»، «بدت من الخدر»، «هجرني حبيبي»، «ليالي الوصل»، «يا غزالاً»، «بدر تم»، وغيرها...

في الاسطوانة - الحدث ١٦ موشحاً «البعض منها نادر والبعض مسموع باعداد مختلفة، ولكنني عمدت على اتباع الإعداد القديم»، وفق شبير التي تضيف: «هدفي من هذا العمل ابراز هذه الموشحات بطريقة أراها صحيحة. وهي التصرف بالموشح في دون المسّ بهيكلية اللحن الاساسي، بل حرية خاصة بالغناء...». تبرز اللحن ولا «تتدخل» فيه. يظهر أسلوبها الشخصي المثقل بالدراسة الأكاديمية من خلال «العرب» التي تشبه أحياناً «الرقص النقري»، وايضاً من خلال «القفلات». ١٦ موشحاً لا نعرف من لحنها او كتبها، (باستثناء موشح «بدر تم» لكامل الخلعي).

انطلقت شبير من الحفلات الموسيقية التي أقيمت في مؤتمر القاهرة - ١٩٣٢ الذي كان المؤتمر العالمي الاول الذي «يحضنه» العالم العربي وركزت على الموشحات التي برزت في الحفلات، وبحثت عن كلماتها «وأتيت الخانات كلها وضبطتهن في شكل منمّق». ٣ سنين من البحوث المكثفة، باعتبار ان «التنويط أخذ سنة، لنعمل مقارنات بينه وبين بلدان اخرى، والتسجيل أستغرق سنة».

الموسيقيون الذين رافقوها في الأستوديو، كما في الحفلتين اللتين قدمتهما في مسرح المدينة، وتلتا إطلاق الاسطوانة هم: شربل روحانا (عود، تنويط، قائد الفرقة)، علي الخطيب (رق)، سمير سبليني (ناي)، ايمان حمصي (قانون)، طوني خليفة (كمان)، وعبود السعدي (باص). «نفذ التسجيل من دون مشاركة كورس، لأن الغناء الجماعي، مهما علا شأن المؤدين، لا يستطيع مناهزة التعبير الفردي في الإحساس وفي اداء الزخرفات والعرب والقفلات» كما تشرح شبير.

غلاف «سي دي» الموشحات

الاسطوانة مرشحة ايضاً لجائزة في مصر، وتقدم «المدافعة» عن التراث القديم، حفلة في ٦ شباط الجاري في قاعة اميل لحود للمؤتمرات في ضبية، وبعدها في آذار، في دار الاوبرا في مصر، وايضاً في البحرين. يتخلل الحفلات، الى الغناء، شرح للأعمال المغناة. على ان تقوم لاحقاً بجولة في باريس وايطاليا. كما تعمل على اطلاق أسطوانة ترتكز على «طقاطيق قديمة» تأتي ضمن السلسلة التي بدأتها مع «الموشحات».

تخرجت شبير من جامعة الروح القدس، وحازت شهادة الماجستير في العلوم الموسيقية والغناء الشرقي، وتخصصت في غناء الموشحات والتراتيل السريانية. لها كتابان: «الموشح بعد مؤتمر القاهرة - ١٩٣٢»، و«سيد درويش - الموشح والدور». عندما تلقت خبر ترشيحها: «ما استوعبت الجائزة، وفكرت أنو دعاية مثلها مثل غيرها: مبروك ريحتي معنا!».

رافق الاسطوانة كتيّب أنيق شرحت فيه شبير ميزات الموشح وخصائصه وتاريخه القديم والحديث، لتواكب المستمع في رحلة اكتشاف تلك الموسيقى العريقة وتذوقها، وتآلف أذنه معها... بل أسهبت في تفسير كل موشح وارد فيها، بعلمية ومهنية عالية، من خلال تبيان مكونات كل منها (المقام، الايقاع، التقسيم، والطريقة الأسلم لأدائه)، مع ترجمة للنصوص العربية الى الفرنسية والانكليزية. وعن تجربتها تقول غادة شبير: «ليس الهدف من هذا العمل اعادة احياء التراث فقط، بل تسجيل عدد من الموشحات القديمة جيداً وبتقنيات جديدة، بغية ايصالها الى أوسع دائرة من المتذوقين. انها محاولة مني لتبيان جمال ألحاننا القديمة ورقتها، من ناحية بنية الجملة اللحنية، والقدرة على التصرف بالنغمات والايقاعات، بحيث يفتح امام المؤدي مجالات مختلفة لتقديمه، لجهة التفرد بالاداء والتلوين».

ما يهمّ غادة شبير هو بلوغ الحالة الطربية الصرفة. لذلك اختارت العودة الى الصيغة الاساسية القديمة لكل موشح، وأهملت كل محاولات «الإعداد» التي راج على أساسها عدد كبير من الموشحات. فالتجديد - برأيها - يقوم على الاجتهاد في الاداء، هنا يبرز كل مغن فنه وقوته وتمايزه، من دون المساس بهيكلية اللحن الاساسي. ذلك ان الموشح يترك للمؤدي حرية كبيرة في التعبير عن أحساسه، شرط البقاء داخل الايقاع والحفاظ على هيكلية اللحن. من هنا اعلانها حرباً صريحة على «اعتماد الاوركسترا السمفونية مع الموشح»، وعلى كل محاولات تجميد هذا القالب الغنائي الفريد، عبر «توزيع يكبّل المطرب، ويحدّ من عطائه، ويجعله أسير جملة كثرت فيها العلامات الموسيقية المتتالية أو الهارمونية، حتى إذا أراد المطرب التصرّف والارتجال والخروج عن المكتوب، اصبح نشاذاً على الفرقة».

وتراهن غادة شبير على احياء هذا الفن العريق الذي أبصر النور في العصر الذهبي للعرب في الأندلس، خلال القرن العاشر للميلاد، ثم تشكل في قوالب مختلفة بين المغرب والمشرق ولم ينتشر الا في القرن الثالث عشر للميلاد. وتمّ حفظ الموشحات وتناقلها لقرون طويلة، قبل ان يبدأ تجميعها وحفظها على يد محمد شهاب الدين في القرن التاسع عشر... ويبدو ان عام ١٩٣٢ الذي شهد انعقاد «مؤتمر الموسيقى العربية» في القاهرة، يعتبر تاريخاً مفصلياً في تاريخ الموشح الذي حمله درويش الحريري عازفاً ومؤدياً الى المؤتمر المذكور... قبل أن يتجدد ويزدهر وينتشر على يد مؤلفين بارزين بينهم عمر البطش ومحمد عثمان وسيد درويش والشيخ زكريا احمد ورياض السنباطي... وصولاً الى الأخوين رحباني وتوفيق الباشا. وربما لا يعرف كثيرون ان القدود الحلبية هي في أصلها تنويعات هجينة على فن الموشح.

في عام ١٩٧٧، نالت جائزة الأغنية العربية في المهرجان السنوي الذي يقام في دار الاوبرا في القاهرة. وسرعان ما توجت جهودها في مجال البحث في تاريخ الموشح وقواعده وميزاته في كتابين: «الموشح بعد مؤتمر القاهرة - ١٩٣٢»، و«سيد درويش - الموشح والدور» وفيه توثق بأمانة ابداعات المؤلف المصري من خلال تنويت كل الموشحات والادوار التي كتبها خلال مسيرته الغنية والقصيرة.

اشتهرت شبير في البداية بأدائها الألحان السريانية القديمة، وشاركت في مهرجانات عدة في لبنان وخارجه، وصدرت لها تسجيلات في هذا المجال. وكانت لها مشاركة غنائية في اسطوانتي المؤلف الموسيقي اللبناني نديم محسن «شبه» و«رقصة النار»، اضافة الى مشاركة في اسطوانة « ١ Communiqué #» للموسيقي اللبناني غازي عبد الباقي، أولى اصدارات الشركة التي ساهم هذا الاخير في تأسيسها، بهدف الدفاع عن التجارب الموسيقية البديلة وتوزيعها.

هذا التعاون الاول مع عبد الباقي، كان مفصلياً في حياة غادة شبير الفنية. اذ تطور فيما بعد ليثمر الاسطوانة الحدث، اي «موشحات» المرشحة اليوم لجائزة هيئة الاذاعة البريطانية التي تعدّ - بحدّ ذاتها - اعترافاً وتكريساً.

❖ «موشحات» - (FOR WARD MUSIC 2006)
❖ للمشاركة في التصويت:
www.bbc.co.uk/radio3/worldmusic